محمود درويش
(١٩٤١-٢٠٠٨)
الشعر وفلسطين.. معاً

أمطار ستوكهولم الدافئة

لنا الشعرُ والمحبّة، ولهم ما تبقّى...

□ واسيني الأعرج

«أذهبُ، أتركُ خلفي عناوينَ قابلةً للضياع/وأنتظر العائدين، وهم يَعْرفون مواعيدَ موتي ويأتون» (محمود درويش، «مزامير،» من ديوان: **أحبّك أو لا أحبّك**، ١٩٧٣).

- ١ -

خاض محمود درويش في شعره، وفي **جداريته** تحديدًا (بيروت: دار رياض الريّس، ٢٠٠٠)، حربًا ضروسًا ضدّ الموت، جديرةً بأن تضاف إلى الحروب التي خاضها أنصافُ الآلهة، والآلهةُ أنفسُهم، ضدّ قوى الطغيان وزوس العظيم. ولم تكن المعركةُ متكافئة، ولكنْ مَنْ غيرُ الشاعر يَمتلك القدرةَ على خوضها ولو كانت النهايةُ تراجيدية؟! كان درويش يعرف أنّ الموت لم يصبح قريبًا منه بل أصبح فيه: في كأس القهوة الصباحية، وفي الهواء، وفي الألبسة التي يرتديها كلّما أراد أن ينامَ أو يقوم، وفي المرآة التي لا تَعرف الكذبَ عليه. ولكنه كان يعرف أيضًا أنْ لا شيء أقدر من الشعر على الانتصار في هذه الحرب الضروس والنبيلة على غطرسة الموت: «هزمتكَ يا موتَ الفنون...»؛ «فيا موتُ انتظرْني ريثما أُنهي/تدابيرَ الجنازة في الربيع الهشّ،/حيث وُلدت، حيث سأمنعُ الخطباء/منَ تكرارِ ما قالوا عن البلدِ الحزين.»

أخيرًا خَتَمَ الموتُ الرحلةَ بجبروته. مات درويش وارتاح من تعبٍ مضنٍ ظلّ يؤرّقه. ولم يكن ذلك تعبَ القلب طبعًا ـ فهذا كان يتحمّله وحده ويعانيه في صمت المقاوم الهادئ ـ ولكنْ تعبَ الخيبة الكبيرة من انكسار حلمٍ بنى عليه مشروعَه الشعري، وهو مشروعُ جيلٍ بكامله، ليتحوّل الحلمُ كلُّه، في شكله الأضعف، إلى صورة صراعاتٍ صغيرةٍ تشبه الصراعاتِ القبليةَ التي صَغَّرتْ كلَّ شيء، وليتحوّلَ الوطنُ إلى قبيلتين سياسيتين: قبيلة رام الله وقبيلة غزّة، والله وحده يعلم متى تنشأ قبيلةٌ أخرى تَحْتزل كلَّ العمق القبلي والسياسي الذي ما يزال يعتمل في دواخلنا ولم يخرجْ باتجاه مهمةٍ عليا تهمّ المصائرَ الكلّيةَ للفلسطيني: أي التفكير، قبل أيّ شيءٍ آخر، في بناء الدولة الفلسطينية التي ظلّت حلمًا بعيدًا، قبل أن تلوحَ في الأفق، لتغيبَ من جديد. ولا أحد يدري متى يتمّ تفكيكُ البنية القبلية الدينية التي رَهَنتْ قضيةً وطنيةً كبرى بصراعاتٍ تظلّ جانبيةً مهما كانت أهميتُها. ولقد ظلّ شعرُ محمود درويش في السنوات الأخيرة يعبّر عن هذه المأساة الخفيّة، حاملاً بين طيّاته نبرةً حزينةً لا اسمَ لها إلاّ الخيبة. تضاءل التفاؤلُ، بل الصِّداميةُ التي امتازت بها أشعارُه الأولى، إذ «لم يعد هناك ما يثير الحماسةَ» كما قال في حواره في لقاء «خلّيك بالبيت» مع زاهي وهبي، وحَلَّ محلَّها التأملُ والاستغراقُ في موضوعاتٍ تَنْشد الإنسانَ المعاصر أينما كان. لم تعد الكلمةُ الرشّاشُ هي الحلّ، كما في **أوراق الزيتون**، و**عاشق من فلسطين**، و**آخر الليل**، و**حبيبتي تنهض من نومها**، و**العصافير تموت في الجليل**، و**أحبّك أو لا أحبّك**، و**محاولة رقم ٧**، و**تلك صورتُها وهذا انتحار العاشق**، و**أعراس**، و**مديح الظلّ العالي**، و**وردٌ أقلّ**. فقد أدرك درويش، بحاسّة الفنّان المتبصِّر، أنّ ما يعيشه الإنسانُ العربيّ هو سلطانُ الخطاب الفجّ الذي يقيم الحروبَ ويُقْعدها بحسب شهواته، وينتصر في معاركه الورقية متى يشاء، من دون أن يكون لذلك معادلٌ موضوعيٌّ يجعل من الكتابة والخطابات وسيلةً لتأمّل الكسور الخفيّة في الذات العربية، والبحثِ في ما ظلّ يتخفّى من هشاشةٍ عميقةٍ للإنسان العربي غيرِ المنعزل عن سياقٍ يتجاوز إرادتَه ويقينَه. وهذا ما يَظْهر في: **أرى ما أريد**، و**أحدَ عشر كوكبًا**، و**لماذا تركت الحصانَ وحيدًا**، و**سرير الغريبة**، و**جدارية**، و**حالة حصار**، و**كزهر اللوز أو أبعد**، و**أثر الفراشة**. وقد رافقتْ ذلك تحوّلاتٌ عميقةٌ في بنية الثورة الفلسطينية: من آمالٍ انكسرتْ بسرعة، وخيباتٍ وتمزّقاتٍ متتالية، واستقالةِ درويش نفسِه من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في آب (أوت) ١٩٩٣، مع توارٍ واضحٍ للخطابات المباشرة الحادّة ـ وسببُ ذلك، ربما، اندثارُ العدوّ بمعناه التقليديّ، إذ أصبح هذا الأخيرُ شريكًا في عملية السلام المتعثّرة (وآخرُ أمسيةٍ لدرويش في رام

الله تؤكّد ذلك). لقد أصبح البعدُ الشعري إنسانيّاً تذوب في عمقه القضايا الخاصةُ التي كانت إلى وقتٍ قريبٍ محوريةً في القول الشعري. المؤكّد أنّ أصحابَ الخطابات الرنّانة خسروا في درويش الشابّ رجلاً حماسيّاً مات منذ خروجه من بيروت، وكسب المتأمّلون الصبورون صوتًا يَسْمعه الجميعُ ويستأنسون له؛ ذلك لأنّ خطابه الشعري أصبح أكثرَ اتّزانًا، يجتاز الحدودَ والعوائقَ العالمية بسهولةٍ أكثر، وربما وصلتْ عن طريقه، وبسهولةٍ أكثر أيضًا، صورةُ الفلسطيني الآخر، الباحثِ عن السلام والمتحدّثِ عنه وإنْ في عمق رماد الحصار: «أيها الواقفون على العتبات ادخلوا/واشربوا معنا القهوةَ العربيةَ/قد تَشْعرون بأنكم بشرٌ مثلنا/أيها الواقفون على عتبات البيوت/أخرجوا من صباحاتنا،/نطمئنّ إلى أننا/بشرٌ مثلكم.» (محمود درويش، **حالة حصار**، ٢٠٠٢، ص ١٨)؛ «إلى قاتل: لو تأمّلتَ وجه الضحية/وفكّرتَ، كنتَ تذكّرتَ أمّكَ في غرفة/الغاز، كنتَ تحرّرتَ من حكمة البندقية/وغيّرتَ رأيَك: ما هكذا تستعادُ الهوية.» (المصدر نفسه، ص ٢٩).

أصحابُ الخطابات الرنّانة خسروا في درويش الشابّ رجلاً حماسيًّا مات منذ خروجه من بيروت، وكسب المتأمّلون الصبورون صوتًا يسمعه الجميعُ ويستأنسون له.

- ٢ -

هذه المرة خرج درويش، ولكنْ ليس كما في المرات السابقة، منزعجًا أو غاضبًا من تصرّفٍ ما مسّه في العمق، بل خرج لكي لا يعودَ أبدًا، ولكي يتركَنا أمام كمٍّ من الأسئلة ومن الأوراق هي بمثابة الوصايا لمن أراد أن يتأمّلها بعمق. كان وجهُه شاحبًا على غيرِ ما عهدتُه. أتذكّر أنّ آخرَ مرة رأيتُه فيها كانت في السنة الماضية بمناسبة احتفالية جائزة الشيخ زايد للكتاب، بأبو ظبي. لم تُثِرْني القاعةُ الغاصّةُ بالجمهور (فهذا جزءٌ من التقاليد التي أصبحتْ عاديةً كلّما مرّ درويش على مدينة عربية)، بل جملتُه التي قالها لي عندما سألتُه، أمام كأس قهوةٍ عربية، عن صحّته: «تعبتُ، أصبحتُ هشّاً جداً وأريد أن أرتاحَ وأن أتصالحَ أخيرًا مع قلبي الذي أتعبتُه كثيرًا.» في نهاية كلامه، لم يرسم ابتسامتَه المعتادةَ التي هي علامةٌ على أنه لم يكن جادّاً. كان وجهُه حزينًا؛ لم يستطعْ تظليلَ انفعالاتٍ مبطّنة من وضعٍ فلسطينيٍّ كان كلَّ يوم يَقتل جزءًا حيوياً فيه. ولم تستطع نظّارتاه العريضتان والثقيلتان تخبئةَ انشغالاته العميقة، وربما خيباتِه الدفينةَ التي كانت في كلّ يومٍ تأكل مساحةً خضراءَ في حديقة جسده.

ولهذا، عندما يتركنا شخصٌ استثنائيٌّ كدرويش، فليس الأمر حدثًا كبيرًا فقط، ولكنه فسحةٌ أيضًا لإعادة النظر في الكثير من هواجسنا الفردية والجمعية وما يحيط بنا في عالم لم يعد سهلاً ولا رومانسيّاً. فأصعبُ اللحظات وأدقُّها هي تلك المرتبطة بانطفاءِ مَنْ نحبّ، حيث يتوقّف كلُّ شيء، بما في ذلك بلاغةُ القول والندب، ونجد أنفسَنا مجرّدين ولو من حقّنا البدائي في الصراخ. أنا أحسد الذين يبكون بسرعة ويكتبون بسرعة كلما غادرَنا عزيز: أقرأ ـ بالكثير من الدهشة ـ كيف ينفعلون ويكتبون، في وقتٍ يكون فيه الصمتُ أدقَّ البلاغات المكنة وأكبرَها. لا شيء يجابه قسوةَ الموت، ولحظةَ الانخلاع القسري عن المحيط، والصدمةَ الفجائية، مثل الصمت. ذلك أننا نحتاج إلى وقتٍ كافٍ لندركَ هولَ الفاجعة، وأنّ الذي مات لن يعودَ أبدًا. ولا يتعلّق الأمرُ فقط بمقالةٍ نقديةٍ نقولها ثم ننساها لنكتبَ غيرَها عن مناسبةٍ شبيهةٍ لها أو تختلف عنها. ثم كيف نكتب، بحبٍّ وبعقلٍ أيضًا، عن الذين يملأون قلوبَنا شعرًا وأسئلةً... وخيباتٍ أحيانًا؟ إننا نحتاج إلى زمنٍ لكي نستوعبَ أنّ الذين خرجوا هذا الصباح لن يعودوا مساءً أو غدًا. وعلينا أن نتعوّد غيابَهم الدائمَ كلّما فتحْنا أعينَنا، وكرّاساتِ التليفونات، وأجنداتِ المواعيد في المقاهي والأماكن العامة التي جمعتْنا بهم. وعلينا أن نتعوّد الحدَّ من الرغبة في الاستماع إلى أصواتهم كلما اشتقنا إلى سماعهم. ربما احتاج الأمرُ، لمقاومة ذلك، إلى شيئين غيرِ متوفّرين فينا، نحن البشر الضعفاء: إمّا تعوّدِ الموت والقبولِ به، خصوصًا أنّ هذا الأخير أصبح ـ في بلادنا الواسعة كالخوف وكخرائط الخيبة ـ عاديّاً ومكرّرًا؛ وإما إلى شجاعةٍ استثنائيةٍ تنسينا وجودَه تمامًا وتحوّلُه إلى مجرد بياضاتٍ تتماهى مع لون الحياة.

«للموت وقت، وللصمت وقت، وللنطق وقت»: الكلامُ لدرويش.

- ٣ -

أمطار ستوكهولم تجنّنِ الزائرَ العاشقَ لها. فهي، مهما كانت باردة، تورث إحساسًا غريبًا بالدفء. كان المطر الشتويّ قويّاً في ذلك الصباح في المدينة الملكية الناعمة. وكنتُ في السويد، بدعوةٍ من المكتبة الدولية ومركز الأبحاث المتوسطية. وزرتُ بالمناسبة مرتفعاتِ المدينة مع مترجمتي، حيث يوجد القصرُ الملكي، وأكاديميةُ جائزة نوبل وملحقاتها، بما في ذلك متحفُها الصغير. بدت لي كمجلسٍ قضائيّ دوليّ لا يختلف كثيرًا عن المحكمة الدولية في لاهاي. رأيتُ المكانَ الجميل الذي تُحكّم فيه مصائرُ الأدب العالمي، ورأيتُ صورَ المحظوظين الذين كانوا يملأون المكانَ ولم تبق إلاّ ظلالُهم الخالدة. كان وجهُ ألبرت آينشتاين وعملياتُه الحسابية حول النسبية تملأ المداخلَ الرئيسةَ والفرعية. بشّرتْني مترجمتي ومرافقتي، بسعادةٍ بدت واضحةً في عينيها، بأنّ اسمَ محمود درويش، الذي تُرجم إلى العديد من لغات العالم، بدأ يتكرّر كثيرًا في الأوساط النافذة، وأنه يُحتمل أن يكون هو الفائزَ هذه السنة. أكّدتْ أنّ الخبر «وصلها عن طريقٍ شبهِ رسميّ. ولكنْ...» سألتُها

بعفويةِ طفلٍ ينتظر المزيدَ من المعلومات: «لماذا هذه الـ لكن؟» قالت: «الصراعُ على أشدّه مع أسماء أخرى.» طبعًا لم يكن ذلك غريبًا؛ فالجائزة تشتغل بهذه الطريقة دائمًا، وهذا جزءٌ من رهانها. في لحظةٍ من اللحظات فكّرتُ أن اتّصل بدرويش في عمّان، وأُخبره بهذا الشيء الجميل الذي هو بصدد الحصول، وأنّ ذلك ليس في نهاية المطاف إلاّ عدلاً نحو عقلٍ عربيّ نَوَّرَ وما يزال يُنوِّر الإنسانيةَ. ولكنّ الأمر بدا لي متسرِّعًا ولا فائدة من ورائه، إذ كثيرًا ما دُفع بالأسماء إلى التداول لمجرّد تحسُّسٍ ردود فعل المحيط الثقافي العالمي المليء بالإرباكات السياسية والأسئلة المعقّدة. ومع ذلك، لم أخبِّئْ سعادتي وأسئلتي أيضًا، فقلتُ لمترجمتي الطيّبة والنبيلة والمتعاطفة إلى حدّ بعيد مع القضية الفلسطينية:

«لا أدري إنْ كانوا جادّين في اقتراحهم. ولكنّ المؤكّد أنّ الجائزة، بذهابها إلى درويش، ستضيف إلى ذاكرتها المرتبكة قيمةً إنسانيةً عظيمة. إنّ درويش، قبل أن يكون فلسطينيّاً أو عربيّاً، قيمةٌ إنسانيةٌ نادرة، في عالمٍ ما يزال تحت وقع سطوة الظلم والغطرسة. ألم يكن ألفرد نوبل يحلم بأن يجعل من جائزته وسيلتَه الإنسانيةَ لمحو الغطرسة والإشادة بالإنسان كقيمة أولاً وأخيرًا، بعد أن أصبح البارودُ والمتفجّراتُ وسيلةً لتدمير الإنسان، بدل تذليل الطبيعة كما كان يريد؟ درويش من الكتّاب العرب ذوي الرؤى النادرة والدقيقة. لم يخلطْ أبدًا، منذ قصائده الأولى حتى كتاباته الأخيرة، بين اليهوديّ الطيّب والصهيونيّ الذي جَعل من يهوديته وسيلتَه لكسر حياةٍ وتوازناتٍ بكاملها بُنيتْ على تلك الأرض. كانت فلسطين طيبةً وتسعُ الجميعَ، المسلمَ والمسيحيَّ واليهوديّ؛ فاختُزل كلُّ شيء، وغُيِّرت الجغرافيةُ والتاريخُ، ونُسج تاريخٌ آخر جَعلتْ منه الحركةُ الصهيونيةُ رهانَها ودَفعتْ بالناس إلى كراهيته. فالمزج الذي قامت به بين العِرقية والدين والدولة جعل التفريقَ مستحيلاً، بل كثيرًا ما أدّى إلى ارتكاب الحماقات من الجهتين؛ فأصبح اليهوديُّ، في الوعي البسيط، هو الصهيونيّ، وأصبح الصهيونيُّ هو اليهودي. وهو التباسٌ دفع ثمنَه اليهوديُّ قبل غيره.»

ردّت مترجمتي: «هم جادّون هذه المرة، ولكنْ هناك إشكالٌ يستيقظ كلّما تعلّق الأمرُ بعربيّ، وتحديدًا بفلسطينيّ.» وأضافت: «إلى جانب درويش مرشّحٌ آخر هو آموس أوز Amoz Oz.» قلتُ بعفوية: «ليكن؛ فهو روائيّ كبير، كتب رواياتٍ كثيرةً أحدثتْ أثرًا طيّبًا بموضوعاتها الإنسانية وبخياراتها الطيبة التي لا ترى في الفلسطيني دائمًا عدوّاً لا يَعْرف إلاّ محوَ اليهودي. معظمُ رواياته ـ **هناك ربما** (١٩٧١)، و**عزيزي ميخائيل** (١٩٧٣)، و**حتى الموت** (١٩٧٤)، و**لمس الماء لمس الرياح** (١٩٧٦)، و**هضبة النصيحة السيئة** (١٩٧٨)، و**الاستراحة الأكثر عدلاً** (١٩٨٦) ـ تَركتْ أثرًا كبيرًا في نفسية القرّاء بقيمتها الإنسانية المدافعة عن الحقّ في العيش الكريم. وهناك كتابُه الذي يظهر فيه نضالُه من أجل تقاربٍ عربيّ ـ إسرائيلي، وعنوانُه: **أصوات إسرائيل** (١٩٨٣).» قالت إنها سعيدة لأنني أفكّر بهذه الطريقة، إذ كثيرًا ما صادفتُ عربًا يرفضون حتى مَنْ هم مع قضيتهم. قلتُ: «إنّ الجرح كبير وواسع ومفتوح بشكلٍ دائم، ونحتاج إلى زمنٍ آخر لندركَ أننا أخطأنا كثيرًا. ولكنّ الذين أخطأوا في حقّنا كانوا كثرًا، وجعلوا العقلَ المفكّرَ أقلّيةً في أرضه؛ فقد دَمّروا إمكانيةَ الحلم في نفسية العربي، ودَفعوا به نحو مغاور جهنّم والجهل. طبعًا، لقد لعب أوزْ دورًا رياديّاً في حركة السلام الآن (Peace Now) التي تنادي، على الرغم من التطرّفات القاتلة، بحقّ الشعب الفلسطيني في إقامة دولته.» قالت مترجمتي إنّ أشخاصًا مثل درويش وأوز يجب أن يُحتفى بهم لأنهم ندرةُ الندرة في زماننا الظالم والهشّ. قلتُ إنني أعرفهما جيدًا، ويستحقّان بلا جدال جائزةَ نوبل لمواقفهما ولتدخّلاتهما الدائمة في قضايا السلام والحياة، ولكنْ أيضًا لأدبهما المتميّز الذي لم يسقطْ في السهولة العرقية والدينية التي حَكمتْ مدةً طويلةً جزءًا مهمّاً من منطق الثقافتين. يستحقّانها ويستحقّان جائزةَ السلام أيضًا. ولكنْ هل من الضروري هذه الازدواجية الدائمة؟ ألا يمْكن التفكيرُ في الواحد بشكل عموديّ وعميق؟ ألا يوجد تفكيرٌ له إمكانيةُ الانفصال عن هذه الازدواجية المقيتة ويفكّر مباشرةً في القيمة الإنسانية والأدبية أولاً وأخيرًا؟ لقد خسرتْ جائزةُ نوبل، بسبب هذه الازدواجية، مواعيدَ كثيرةً عظيمةً في رحلتها التي تخترقها دائمًا الحساباتُ التي لا تفضي بالضرورة إلى نتائج تثبت القيمةَ قبل أيّ شيء آخر، كما افترض نوبل وهو يكتب وصيّتَه التاريخية. أخطأتْ ليون تولستوي في ١٩٠١، عندما كانت تبحث عن مسالكها الأولى، وسلّمت لبرودهوم (Prudhomme) الذي لم يكن شيئًا مطلقًا في الكتابة الأدبية، لا في الثقافة الفرنسية ولا الإنسانية، سوى أنّ شخصيةً تقليديةً من الأكاديمية فرضتْه قبل أن يدركَ بقيةُ الأعضاء الكارثةَ التي وقعوا فيها. وأخطأتْ أيضًا كاتبًا عظيمًا مثل جيمس جويس، غَيَّرَ نظامَ الكتابة ومنحَها معبرًا جديدًا للحياة والاستمرارية، ولم تدركْ نوبل حماقتَها الكبرى إلاّ عند وفاته. وأخطأتْ مارسيل بروست الذي غيّر نظامَ السرد في **البحث عن الزمن الضائع**. ولم تنجحْ مطلقًا في تفضيل بونين المتواضع كتابةً على عبقرية نابوكوف، صاحب **لوليتا** الخالدة، وإبداعيته. والقائمة طويلة. وها هي اليوم تَخْسر موعدَها الجميل مع محمود درويش، القيمةِ الساميةِ التي عبّرتْ عن الشأن الإنساني قبل أن تعبّر عن قضيةٍ محلّية. ففلسطين ليست في النهاية إلاّ التعبيرَ المختزَلَ عن أزمة العصر بكامله، وأزمةِ الغرب أيضًا، تجاه قيمه التي ابتدعها ودافع عنها باستماتة: قيمِ الحق في الحياة والحرية والعيش الكريم.

وأضفتُ أنني أشعر كأنّ هناك أزمةَ ضميرٍ تأكل الغربَ من الداخل، على الرغم من توارث الأجيال وتكاثرها. فقد التبس برؤيةٍ ازدواجيةٍ متحكّمةٍ في كلّ تصرفاته، حتى الفكريّ منها: بين الرغبة في الموضوعية، وخوفِ إغضاب الآخر، وكأنّ على الآخر أن يكون راضيًا أولاً قبل اتخاذ أيّ قرار! وقلتُ لمحدّثتي إنّ الغرب موجودٌ داخل دائرة من الضيق وعسْر التنفّس الحرّ تَمْنع جائزةَ نوبل من الخروج من الديكوتوميا

[الانقسامية] ونحتِ طريقٍ جديدٍ أكثرَ جماليةً وحريةً. وزدتُ أنّ نوبل ربما في حاجةٍ ماسّةٍ إلى ثورة داخلية تجعل منها تعبيرًا إنسانيّاً عميقًا عن الأنبل في الإنسان. وخلصتُ إلى أنّ في درويش كلَّ الخاصيّات التي يستحقّها بامتيازٍ ويشرّفها:

- النصّ الشعري المتجدّد الذي لم يسقطْ في السهولة والاستهلاكية، من قصائده الأولى التي صَوّرتْ عمقَ التمزّقات التي يعيشها الفلسطينيُّ في ظلّ الاحتلال، إلى تعقّدات الحياة بمختلف قيمها، ومنها الحبُّ الذي ظلّ قيمةً عليا في نصوصه، في وضعٍ كلُّ ما فيه يدعو إلى الكراهية؛

- والرؤية الإنسانية الرافضة للظلم والحروب القاتلة؛

- ونبذ العرقية والرؤى الضيّقة التي لم تعملْ إلاّ على إبادة أجمل قيم البشرية؛

- والإصرار على الالتصاق بالعصر، حتى عندما يكون ظالمًا إلى أبعد الحدود، وملامسته عن قرب من خلال تيماته الأساسية كالحرية، والموت، والحب، والحقد.

وختمتُ بأنّ ما ينقص نوبل في حالة درويش/ أوز هو القرارُ الصائبُ قبل فوات الأوان... لا بالنسبة إلى الكاتبيْن، فهما مستمرّان في الذاكرة الجمعية الإنسانية بقوة لأنهما الأقربُ إلى ضمير العصر، بل بالنسبة إلى مصداقية الجائزة نفسها التي كلما أخطأتْ موعدًا مهمّاً انتفى جزءٌ من أصالتها.

لم تخبّئ مترجمتي عواطفَها النبيلةَ تجاه الشعب الفلسطيني الذي دُفع نحو الزاوية الضيقة. وهي لا تفهم جيدًا حالةَ الإفلاس التي دُفعتْ إليها القياداتُ السياسيةُ في تصوّر الدولة الفلسطينية الذي كان حلمًا راود الأجيالَ المتتالية ليتحوّل في نهاية المطاف إلى دويلتيْن متناحرتيْن: دولة غزة ودولة رام الله، لا معنى لوجودهما السياسي إلا المزيد من تعقيد الجغرافية والسياسة. قد يبدو الأمر مؤلمًا، ولكنّ المسألة ليست لعبةً في الأجندة الإسرائيلية بل مسألة جدّية تهدف إلى تفتيتٍ فلسطينيّ أكبر وإلى تغييب فكرة الدولة والقبول بما يفرضه الميدانُ والأمرُ الواقع. من هنا أفهم جيدًا حزنَ درويش الذي كان حزنًا يتجاوز حالة مرضه وخوفه على قلبه من أن يتخلّى عنه في أية لحظة من لحظات العمر.

> لم يحصل درويش على جائزة نوبل. وظلّ كبيرًا من دونها، لكنّها بموته خسرتْ شيئًا لا يمكن تصليحه أبدًا.

- ٤ -

طبعًا، لم يحصلْ درويش على جائزة نوبل، وظلّ كبيرًا من دونها. لكنها بموته خسرتْ شيئًا لا يمكن تصليحُه أبدًا، مثلما كان الحال مع عظماء سبقوه إلى سدّة الخلود: تولستوي، جويس، پروست، وغيرهم من الذين يؤثّثون اليوم الذاكرةَ الجمعيةَ للبشرية.

عندما أخبرتُ درويش بحكاية استوكهولم، ونحن في رحلةٍ بين عمّان وباريس، ظلّ صامتًا لحظاتٍ قبل أن يقول ضاحكًا: «الدنيا كما ترى يا صديقي. ما زلنا نكتب ونسافر ونعيش كما نشتهي إلى حدّ بعيد، ولا شيء تغيّر في النظام. العكس هو الذي يفاجئ. أما والحال هكذا، فلا شيء يثير سؤال الدهشة.» ثم صمت من جديد قبل أن يواصل وكأنه استدرك شيئًا كان قد نسيه: «يجب أن لا نكذبَ على أنفسنا. نوبل، كما تعرف ذلك جيدًا، جائزةٌ عظيمة، وهي تعبير عن أنّ الإنسان تخطّى حواجزَ الحدود القسرية التي تضعه على حوافٍ يصنعها الآخرون لكي يصل إلى قلوب الناس. لكنْ، بقدْر ما هي عظيمة، فإنها تحمل ضعفًا خانقًا في داخلها. خطؤها أنها، في الأغلب الأعمّ، تستيقظ متأخّرةً. بعد فوات الأوان. ثم...»

تردّد محمود قليلاً ثم واصل بانفعالٍ بدا ظاهرًا على شفتيه وأصابعه وهزّة رأسه، بل على نبرات كلماته التي جاءت متلاحقةً وسريعةً وكأنه كان يريد أن يقول أكثر شيءٍ في أقلّ وقتٍ ممكن: «صراحةً... لا أعتقد أنها معنيّة بنا كثيرًا. وكلُّ ما يحدث من ترشيحات هو من فعل كتّابٍ وأشخاصٍ لهم حساسيةٌ خاصةٌ تجاه التوازنات، وربما بعضُ الإعجاب بما نقوم به، أو حتى تعاطفٌ معنا ومع قضايانا، أو بسبب بعض الحياء من ظلمٍ كبيرٍ لم تر فيه عينُ الفاعلين في نوبل إلاّ نجيب محفوظ، ثم غلقتْ بعده الأبوابَ بشكلٍ شبهِ نهائيّ. لا يعقل. أعتقد صادقًا أنّ أمام الكاتب أشياءَ أبسطَ وأثمنَ يمكنه أن يفكّر فيها: صحّته مثلاً.» قالها ضاحكًا (سفرُه كان من أجل إجراء بعض الفحوص الطبية في باريس). وأضاف: «...وقضاياه الإنسانية الكبيرة التي تستحقّ أن نتعبَ من أجل التفكير فيها، والعمل على تربية نفسه على الخير وعلى حقدٍ أقلّ لأننا في زمن يجيش بالأحقاد. أكثرُ إفادةً للكاتب، ولهذه الأرض التي تفْقد كلَّ يوم بعضًا من أنفاسها وحياتها، أن ينسى ما يقوله الآخرون عنه، وأن يكون فقط جديرًا بأرضه وعصره. لن تكون المرةَ الأولى ولا الأخيرةَ التي يَظْهر فيها كاتبٌ عربي على لوائح الجوائز الكبرى. يبدو أنّ عالمنا ما يزال محكومًا في عمقه بشيءٍ ظالمٍ مضادّ حتى لما هو إنساني.»

ثم ضحك، مضيفًا قبل أن يدفن عينيه في تأملاتٍ داخلية كان قلبُه وحده يعرف سرَّها: «ليكن يا صديقي! لنا الشعرُ والخيرُ والمحبة، ولهم ما تبقّى!»

باريس

واسيني الأعرج

كاتب وروائي جزائري.